

عملية فهم النص على ضوء رؤية سوسور في سورة "آل عمران"؛ المحور الاستبدالي نموذجاً

مجيد صالح بك (الكاتب المسؤول)*

كمال الدين محمد مطهر**

الملخص

إنَّ البنيويَّة تذهب إلى أنَّ النص لا يتألف من الوحدات أو الكلمات ذات وجود مستقل أو منفرد، وإنما من الوحدات التي توجد داخل البنية أو النسق بحيث تضبط تلك البنية علاقات الكلمات وتعطيها معنى وقيمة أو بهاء وروثقا، فضلا عن مواصفاتها وخصائصها الفردية. ومن أهمَّ المباحث التي تهتمُّ بها بنيوية سوسور في هذا الصدد تجرُّد الإشارة إلى المحور الاستبدالي، إذ إنَّ سوسور ذهب إلى أنَّ هناك نوعاً من العلاقة اللغويَّة بين الكلمة التي جاءت في النص والكلمات التي تكون ذات صلة لفظيَّة أو معنويَّة بها غير أنَّها ما جاءت فيه وسمي هذا النوع من العلاقة بالعلاقة الاستبداليَّة بحيث إنَّ عدم الاعتداد به ينجرُّ إلى إهمال المعنى المقصود. فالنص الأدبيُّ بناءً على رؤية سوسور يجد اعتباراً وأهميَّة خاصة كأى نصٍّ لغويٍّ، وذلك باعتداده على المحور الاستبدالي. فانطلاقاً من هذه الفكرة تحاول هذه المقالة أن تدرس التفكير البنيويِّ لسوسور معتمدة على المحور الاستبدالي في سورة آل عمران لتجلى أمر الوحدات في الألوهيَّة والربوبيَّة والمالكيَّة، أي: الاعتقاد بوحدانيَّة الله واستمرار إشرافه على شؤون العباد وملكيته بالنسبة لما يملكه الإنسان بشكل نسبيٍّ ومؤقت وكل ما يكون في السَّماء والأرض واحتوائها على الاستبدالات الصرفية الكثيرة التي تكون ذات اتصال قويم بأمر الوحدات وتسعى للكشف عن أثر استبدال بعض الكلمات الصرفية بالكلمات الأخرى الذي تمَّ في إطار النظام. ونتيجة إحصاء الاستبدالات الصرفية تدلُّ على أنَّ سبب اختيار بعض الكلمات الصرفية تتفق تماماً مع ما تتطلبه كليَّة السورة، أي: الوحدانيَّة بحيث نجد صلة وثيقة بين معنى الكلمة الصرفية المختارة أو المستبدلة والمعنى الذي تهدف إليه كليَّة الصورة وفضلاً عن ذلك تشير إلى أنَّ استخراج الكثير من المعاني المستورة في سورة آل عمران يرتبط بهذا المحور وللاهتمام به دخل كثير في كشف معالم الإعجاز فيها.

الكلمات الدليلية: سوسور، البنيويَّة، المحور الاستبدالي، آل عمران، الوحدانيَّة.

*. أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائي، طهران، إيران
msalehbek@gmail.com

** طالب مرحلة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائي، طهران، إيران
kamaleddinmotahar@gmail.com

تاريخ القبول: ١٣٩٦/٧/٢٩ش

تاريخ الاستلام: ١٣٩٦/٤/١٢ش

المقدمة

سوسور بوصفه رائد البنيوية يؤكد على أهمية المحور الرأسي أو الاستبدال للحصول على المعنى المطلوب داخل النص ويجد المحور الاستبدالى عنده عناية خاصة إذ إنَّ الباحث الأدبى يستطيع باستعانة هذا المحور أن ينتخب بين الكلمات ذات معنى واحد على المحور الرأسي كلمة متناسبة مع ما تتغيه البنية فعندما تقع مفردة فى أى جملة لا شك أنه يتم اختيار هذه المفردة من سلسلة عمودية من الوحدات اللغوية التى يمكن أن تقع محلها.

فالمحور الاستبدالى يعدّ من أهم المواضيع التى ألقى سوسور الضوء عليها بالنسبة إلى تحليله اللغوى فى عملية فهم النص، فهو إيجاد الكلمة أى ما تستثيره الكلمة من معنى خارج السياق من خلال علاقة هذه الكلمة بكلمات أخرى فى الذاكرة، وغايتها معرفة علاقة الكلمة المذكورة فى النص بالكلمات التى من واديهها وسبب اختيارها. وبما أن القرآن ينطوى على معالم الإعجاز ويملك نصا ذا لون أدبى بحيث يحمل فى طياته، وعلى سطحه ألوانا من الجمال الذى يؤثر فى النفس اخترنا سورة آل عمران منه لدراسة هذا المحور.

خلفية البحث

لقد اعتدّ عدد كثير من الباحثين بالدراسة البنيوية فى الآيات وسور القرآن بالطرق المختلفة، وأغلب هذه الدراسات التطبيقية ألفت الضوء على نظم الآيات بمعونة المستويات التركيبية، والصرفية، والدلالية وغير ذلك. فصحيح أن القرآن لا يعنونه الفقر فيما يرتبط بالدراسات البنيوية غير أننا لم نقف على دراسة تنفرد بدراسة المحور الاستبدالى فى إطار النظام كما يذهب إليه سوسور إلا بعض الدراسات المتفرقة التى وجدناها فى بعض المقالات، منها: مقالة: «الإعجاز البيانى للقرآن الكريم من خلال أسلوبية الانزياح (دراسة وصفية-تطبيقية): للدكتورة آفرين زارع وناديا دادبور، اللتين تميظان اللثام عن الانزياح الاستبدالى فى قسم من مقالتهم، أى الانزياح الذى يقع فى جوهر الكلمة، أى: الاستعارة، الكناية، المجاز المرسل، والتشبيه، و«التعليل الصرفى

فى الدراسات اللغوية العربية الحديثة» لأحمد صفاء عبد العزيز عبدالكريم العاتق الذى يدرس فى قسم من مقالاته المستوى الفونيمى والمورفيمى للكلمات الصرفية لا استبدال الكلمات الصرفية وأثره فى إثراء المعنى كما ندرسه فى دراستنا هذه فيبدو أن الدراسات والأبحاث لهذا المحور قليلة فى القرآن وذلك يزيد بحثنا أهمية.

أسئلة البحث

انتبهنا إلى أن المحور الاستبدالي يعدّ من أهمّ المواضيع التى تؤكّد سوسور عليها فاستجابةً لأهمية هذا المحور فى القرآن، تهدف هذه المقالة إلى إضاءة جوانب المحور الاستبدالي من الناحية النظرية والتطبيقية فى سورة آل عمران. فمن هذا المنطلق حاولنا الإجابة عن هذه الأسئلة:

١. لماذا يؤدّى تطبيق هذا المنهج فى القرآن إلى كشف معالم الإعجاز؟
٢. بأيّ صورة يمكن الحصول على النماذج الاستبدالية فى هذه السورة؟
٣. إلى أى شىء يدلّ إحصاء الاستبدالات الصرفية فى هذه السورة؟

أهمية البحث

بدا لنا بعد قراءة العديد من الدراسات القرآنية أن معالجة المحور الاستبدالي بالنسبة لاستبدال الكلمات الصرفية فيها قليلة، هذا من جانب ومن جانب آخر بما أن هذا البحث يسعى إلى إحصاء الاستبدالات الصرفية التى تكون ذات ارتباط بأمر كلية السورة فى سورة آل عمران تزداد أهميته. وسبب اختيار سورة آل عمران دون باقى السور يرجع إلى أهمية هذه السورة، واشتمالها على موضوع الإيمان بوحدة الله تعالى وأيضاً الإيمان باستمرار إشرافه على أمور الناس وملكيته بالنسبة لما يملكه الإنسان بشكل نسبيّ ومؤقت وكلّ ما يكون فى السماء والأرض وما يتعلّق بأمر الجهاد والحجّ والإنفاق والصبر والتقوى و... فإنّ دراسة هذه المواضيع دراسة مستقصية تستدعى الاعتداد بهذا المحور دون ريب. وأما سبب اختيار بعض الآيات فيها يعود إلى عدم سماع البحث للقيام بدراسة كاملة تشمل جميع الآيات التى قمنا بتحديد الدلالة فيها بالاستعانة من هذا المحور.

منهج الدراسة

لا يعدو المنهج المتخذ أن يكون وصفيًا وتحليليًا لهذا المحور وفق رؤية سوسور وذلك بارتكازه على المحور الاستبدالي.

مصطلحات البحث

بنيوية سوسور من أهم المناهج النقدية التي تركز على اللغة، وترى اللغة الطريقة الوحيدة للاهتمام بالعوالم الشكلية والتعبيرية للنص، والمنهج الذي يرى اللغة الطريقة الوحيدة للحصول على المعنى ليس بمقدوره أن يُلمّ بالظواهر المدروسة من كل جوانبها. يقول ليونارد جاكسون في كتابه المعنون بـ"بؤس البنيوية الأدب والنظرية البنيوية": «يصور سوسور اللغة بوصفها نظامًا بنيويًا يشكّل أساسًا لكل استخدام لغويّ، أو لكل كلام، سواء كان نطقًا أم كتابة. وثمة عنصر ثان هو العلاقة الاعتبارية في جوهرها بين أصوات اللغة والمفاهيم التي تعبّر عنها هذه الأصوات.» (جاكسون، ٢٧: ٢٠٠٨) وذلك ما اهتدى إليه عبد القاهر قائلًا: «مما يجب إحكامه أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن المعنى ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحرّاه. فلو أن واضع اللغة كان قد قال "ربض" مكان "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدّي إلى الفساد.» (المرجاني، ١٩٩٥: ٥٦)

فمنهج سوسور هو منهج وصفيّ، وفيه توصف اللغة بوجه عامّ على الصورة التي توجد عليها في نقطة زمنية معينة. «ومن الأهداف التي يهتم بها المنهج الوصفيّ - كما صرح بذلك دى سوسور نفسه - تحقيق مبادئ قابلة للتطبيق عالميا على كل اللغات.» (پاي، ١٩٩٨: ٦٣) وأهمية هذا المنهج تتجلى في أنه يسمح «بجمع المعلومات الحقيقية والتدقيق والتفصيل لظاهرة موجودة فعلا في مجتمع معين، فيضع النقاط على حروف المشكلة الموجودة، كما أنه يمكننا من معرفة ما يفعله الأفراد في مشكلة ما، ويستفيد بذلك من آرائهم وخبراتهم باتخاذ القرارات المناسبة التي يتمّ تعميمها في مشاكل ذات طبيعة مشابهة لها.» (نابي، ٢٠١٠-٢٠١١: ١٣) مهما يكن من شيء فيؤكد سوسور في منهجه على مجموعة من الثنائيات، كالدال والمدلول، واللغة، والكلام، والسانكرونية

والدياكرونية والمحور التركيبي والمحور الاستبدالي^١.

المحور الأفقي - الرأسى «التركيبي والاستبدالي»

يذهب سوسور إلى أن التعيين والتحديد للعلاقة بين المفردة والدلالة لا يمكن إلا وفق المحورين "التركيبي والاستبدالي"، ويعتقد أن الجملة تتكون من الوحدات اللغوية، والألفاظ، والألفاظ هذه قبل وقوعها في الجملة تكون متباينة في شكلها الفردية ولا تدلّ على دلالة ما، ولكن بمجرد وقوعها في مجاورة المفردات والوحدات اللغوية تقع في خط واحد وتشكل جملة ثم تدلّ على دلالة خاص، والحال قبل الوقوع في الجملة تمكن أن تدلّ على أيّ شيء «العلاقات التركيبية أو السياقية في نظره علاقة حضورية لأنها تقوم على عنصرين فأكثر كلّها متواجدة في نفس الوقت ضمن سلسلة من العناصر موجودة بالفعل». (دى سوسور، ١٩٨٥: ٣٦١) وهذا يسمّى عنده "المحور التركيبي، الأفقى" أو بعبارة أخرى "المجاورة".

وأما "المحور الاستبدالي" الذي تهدف هذه المقالة إليه فيرى سوسور «أنّ العلاقة الرأسية أو الاستبدالية تنعقد كما أسلفنا عنها الذكر بين كلمة موجودة في السياق وعدد آخر من الكلمات من خارج السياق، ولهذا فهي علاقة غياب قائمة على التداعى». (عبدالعزيز، ١٩٩٠: ٣٥) فالعلاقة الرأسية تقوم على تقابل بين عنصر لغويّ وعناصر أخرى يمكن أن يستبدل بها وتحلّ محلّه في نفس السياق. والواقع أن «علاقات التداعى أو الترابطية تجمع بين عدد من العناصر بصورة غيائية ضمن سلسلة وهمية موجودة بالقوة أو بعبارة أخرى هي مجموعة من الوحدات التي يمكن أن تظهر في نفس النقطة من الملفوظ والتي لا يجوز للمتكلم أن يختار منها سوى واحدة لا غير تاركاً جميع ما سواها وذلك بسبب الصفة الخطية للخطاب». (دى سوسور، ١٩٨٥م: ٣٦١-٣٦٢؛ والصويان، ٢٠٠١م: ١٢٧) وأخيراً بإمكاننا القول إنّ هذه العلاقة هي العلاقات الناتجة عن انتماء الوحدات الصرفية أو الكلمات إلى صنف واحد، يمكن أن تستبدل فيه بوحدات أخرى في نفس الموضع.

1- signifier 2-signifiant 3-Language 4-Parole 5-Synchronic 6-Diacronic
7-Syntagmatiques 8-Paradigmatiques

هيكل البحث

من يستقرئ القرآن ينتبه أنه يسوده نظم واحد وبنية السور تكون متشابهة وفي الحقيقة يكون القرآن بمثابة كتاب له فصول متعددة غير أن هذه الفصول رغم استقلاليتها في الموضوع تتمتع بنظم واحد، أو بمثابة الدرر الصغيرة والكبيرة التي تنتظم في سلك التوحيد ولها تنظيم موحد. فبنية آل عمران لا تعدو أن تكون كبنية بقية السور، ويكون ترتيب إبراز الموضوعات على ما يلي:

- الوحدانية في الألوهية

يغلب محور الوحدانية في الألوهية على غالبية السورة، إذ إن المسلمين ما إن بنوا دعامة مجتمعهم حتى واجهوا الدعايات السلبية والفتن المتعددة، فعليهم «أن ينتبهوا إلى دورهم البين والتاريخي أمام أهل الكتاب ليحفظوا اتفاقهم في التوحيد...» (بازركان، ١٣٧٥ ش: ١٠٢/٢) وترى أن «كلمة الله ظهرت بشكل تبهر العين في السورة.» (المرجع نفسه: ٣٦/٢ و ٩/١) الآيات: ٦٢، ١٨، ٦، ٢ و... .

- الوحدانية في الربوبية

كان «أهل الكتاب والمشركون يعتقدون بوحدانية الله غير أنهم ذهبوا إلى أن الله أودع حفظ السماء والأرض وتدبير شؤونهما إلى آلهة مثل الملائكة، والأشجار و...» (المرجع نفسه: ٢٦٦/١) ولذلك يردّ الله تعالى ما يذهبون إليه ردًا عنيفًا بالآيات التي تؤكد استمرارية ربوبيته في شؤون الناس. الآيات: ١٩٤، ١٩٣، ١٩٢، ٣٦، ٢٧، ٢٦ و... .

- الوحدانية في المالكية

إن الاعتقاد بالملكية العالم الإلهية وربوبيته وتدبيره المستمر يعتبر الحجر الأساس لبقيّة القضايا التوحيدية. الآيات: ١٨٠، ١٢٩، ٢٦ و... .

- رسالة النبي

تتطلب وحدانية الله في الألوهية أن يهدى الناس ولا يدعهم وشأنهم غير أنه لا يُجبر الناس بقبول الدين الحق بل اكتفى بإرسال الأنبياء حتى يكون الناس أحرارًا في قبول الدين الحق ورفضه. الآيات: ٦١، ٦٤، ٣٢ و... .

- نزعة الناس

انقسم الناس أمام رسالته السماوية إلى فريقين: الفريق الأول هو الذي انقاد

واستسلم أمام الأوامر الإلهية، والفريق الثاني هو الذي تمرّد ورفض الرسالة السماوية.
الآيات: ١٣٤، ١٦٧، ٢١ و... .

الأول: المومنون: المؤمنون هم الذين آمنوا بالله وبالنبيّ ولم يدعوه وشأنه بل تذوّقوا مرّ الحياة وحلّوها إلى جانبه. والمنافقون في القرآن هم الذين لا يتفق قولهم وعملهم، ويقولون في العلانية خلاف ما يذهبون إليه في السرّ. والمشركون هم الذين أعلنوا في بداية الإسلام عداوتهم مع الإسلام وكانوا يتحيّتون الفرص لإلحاق الحسائر النفسية والمادية بالنبيّ والمسلمين.

- ابتلاء المسلمين: الآيات: ٢٠٠، ٩٧، ١٠٢، ١٨٦، ١٠٤، ١٤٦، و... .

الأول: الجهاد: الجهاد في سبيل الله يقترن مع الإمدادات الغيبية والإلهية كما يشير إليها الله تعالى في غزوة بدر وهي أثر واضح من وحدانية الله تعالى وربوبيته التي هي كلية السورة. الثاني: الإنفاق: إنّ الإنفاق في سبيل الله مصدر العمل والنشاط وتحرير الأفكار من الأميال الدنيوية وبالتالي إيجاد الرغبة في الناس للحضور في الحرب كما أنّ البخل يؤدّي إلى عكس ما نحن فيه، أي: الضعف والمذلة وفقد الإرادة و... وفي النهاية الهلاك. الثالث: الصبر والتقوى: يشجع الله تعالى المسلمين في الكثير من الآيات بالصبر والتقوى لأنّ الذي لم يتسلّح بالصبر والتقوى فليس بإمكانه أن يبقَ على طريق التوحيد.

- قصة الأنبياء: الآيات: ٩٥، ٥٩، ٥٢، ٤٥ و... .

الأول: قصة إبراهيم: ما جاء من موضوع في سورة من سور القرآن إلا ويهدف إلى ما تهدف إليه كلية السورة. فيتماشى ذكر قصة إبراهيم مع كلية سورة آل عمران التي هي الوحداية، لأن إبراهيم هو أسوة للجميع في الاعتقاد بوحداية الله ويمكن القول إنّ قصة إبراهيم تعتبر رمزا للوحداية التي هي ما تهدف إليه كلية السورة.

الثاني: قصة آل عمران: آل عمران هم وارثو آل إبراهيم، وبما أنّ بني إسرائيل بعد ما كانوا في القرون المتمادية تحت تعليم الأنبياء انخرطوا في سبيل العدم والزوال، فمنّ الله عليهم ونجّاهم بإرسال أنبياء آل عمران الذين هم واصلوا رسالة إبراهيم. فهم سقوا جنة التوحيد من جديد وربّوا براعم الأخلاق والإنسانية وأصبحوا أسوة لعمران

النفوس والمجتمعات البشرية.

- العاقبة

يتحدّث الله تعالى عن عاقبة الحق والباطل بصور مختلفة فتظهر هذه العاقبة بصورة العذاب، أو جهنم للكافرين و... والرحمة أو الجنة للمؤمنين و... فمصيروهما واضح وضوح الشمس وذلك ما تقتضيه الوجدانية. الآيات: ١٩٧، ١٣٦، ١٠٧، ١٠٦، ٤ و... .

المحور الاستبدال

ويتمّ ذلك "كما بيّننا سابقاً" إما باحلال وحدة محلّ الأخرى أو مجموعة من وحدات محلّ الأخرى، فهو اختيار الألفاظ، للإبانة عن المعاني الجليلة، اسماً، أو فعلاً، أو حرفاً. والانتباه إلى هذا الأمر، أى: اختيار المفردة من بين اثنين أو مجموع من الكلمات ليس أمراً سهلاً كما يظن، ولا ينتبه سرّ ذلك إلا «من أوقى حظاً وافراً من الذوق والمعرفة كما يذهب إليه عبد القاهر الجرجاني». (الجرجاني، ١٩٩٥: ٢٢٤)

وهذا التوفيق في الاختيار، أو الإخفاق، يعدّ أحد الأسباب التي بها تتفاوت مراتب الكلام قوة وضعفاً. ومن يتفقد سورة آل عمران، ينتبه أنّ المفردة تنتخب بحسب ما تستدعيه البنية كنظام أو لما تحتوى من المعاني المنشودة التي يهدف إليها النظام.

فالألفاظ «تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، ومما يشهد بذلك أنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر». (الجرجاني، ١٩٩٥م: ١٦) و«حينما ينتقل عبد القاهر إلى المقارنة بين اللفظة تستحسن داخل سياق وتثقل على السامع في سياق آخر دلالة على المحور الرأسي الاستبدال فالاستحسان والوحشة يرتبطان بممارسة الاختيار، والاختيار أساس علاقة الاستبدال». (حمودة، ١٩٩٨م: ٢٥٦)

مهما يكن من شيء فهناك مواضع كثيرة في سورة آل عمران تمّ فيها الاستبدال بحسب ما يستدعيه النظام بحيث تزيد عليه الدقة والبيان فاخترنا نماذج منه ودرسناه دراسة كاملة وجامعة: منه:

- استبدال الفعلية بالاسمية

إنّ الفعل «يدلّ على التجدد والحدوث والاسم يدلّ على الثبوت والتأكيد. فالجملة التي مسندها فعل تدلّ على الحدوث والجملة التي مسندها اسم تدلّ على الثبوت.» (السامرائى، ٢٠٠٧، ١٥/١) مهما يكن من شىء فقد تقع الاسمية موقع الفعلية على المحور الاستبدالى لإفادة الثبوت والدوام. منه:

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ...﴾

[آل عمران: ١٦٠]

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]

﴿وَإِنْ تُوْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩]

وهكذا فيما يتعلق بالكافرين:

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨٢]

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩]

﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٤]

فلم يقل فى جواب الشرط فى الآية الأولى: «لا تغلبوا، يحبه الله، وفى الثانية: يُعطيكم أجراً، وفى الآية الثالثة: لا تغلبوا. وقس عليها بقية الأجوبة على ضوء رؤية بعض النحاة.» (ابن عاشور، ١٩٨٤م: ٤/١٥٣؛ الأنصارى، ٢٠٠٩م: ١/١٤٣) لأن من منطلق كلية السورة لاجابة إلى تقدير الجواب كما يذهب إليه النحاة ويقدررون الفعل، إذ إنّ جواب الشرط يقتضى الاسمية بسبب إفادتها الدوام والثبوت والتأكيد. فالله تعالى ينصر المؤمنين فى الحرب مع الكافرين ويحبهم ويعطيهم الأجر وذلك ما تطلبه كلية السورة، أى: الوجدانية لأن ما من حزب من أحزابه وهو نصرهم بسبب صبرهم وتقواهم إلا وهم غلبوا أعدائهم. ففوزهم قطعى وحتمى بالتأكيد والدوام والثبوت بسبب نصرته فيتطلب الجواب الجملة الاسمية لا الفعلية التى تفيد التجدد، كما يعلم بسبب ربوبيته أن الظالمين ظلمهم أمر ثابت وقطعى ولا أمل برجوعهم منه بسبب افتراءهم على الله فهو سريع إلى محاسبة أعمالهم بالدوام والثبوت. والاستبدال الصرفية تؤيد صحة ما نحن فيه:

جدول تواتر استبدال الفعلية بالاسميّة:

النسبة المئوية	عدد التواتر	-
٤٧/٥	١٩	مجيء جواب الشرط اسمية فيما يتعلق بالمؤمنين والكافرين
٥٢/٥	٢١	مجيء جواب الشرط فعلية
١٠٠٪	٤٠	المجموع

- استبدال الماضي بالمضارع والمضارع بالماضي

ليس بإمكان الصيغ الصرفية أن تستوعب جميع الحالات في الاستعمال إذ إنّ التحديدات الصرفية للعلماء تتعلّق بما يسمّى الزمن الصرفيّ وتحديد الزمن الأفقيّ هو ما تحدّده البنية أو النظام كما يذهب إليه سوسور. فالزمن الأفقيّ «هو شبكة زمنيّة تتخذ نسيجها من الصيغة الفعلية وما يتولّد عنها من اتجاهات نحويّة وما يضاف إليها من صيغ حديثة غير فعلية وصيغ مركبة وقرائن مع ملاحظة الجمل والأساليب التي تقع فيها تلك الأنواع من الصيغ.» (توامه، ١٩٩٤م: ٢٧٥) وبناءً على ذلك «إنّ تحديد الزمن في المستوى الأفقيّ أو في التركيب وظيفّة البنية وليس وظيفّة صيغة الفعل، لأنّ الفعل الذي على صيغة "فعل" قد يدلّ في السياق على المستقبل، والذي على صيغة المضارع قد يدلّ فيه على الماضي.» (حسان، ١٩٩٤م: ١٠٤) وذلك يعني استبدال الماضي بالمضارع والعكس صحيح. ومن الأول قوله تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ.. وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا...﴾ [آل عمران: ٣٦]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ... فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُمْ... وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ...﴾ [آل عمران: ٧٨]

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧]

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

[آل عمران: ٧]

﴿وَإِنْ يَخِذُّكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل

عمران: ١٦٠]

لم يقل "كان، و..." بل قال "يكون، و..."، جاء في زهرة التفاسير: «ولم يقل كن فكان، وهو المناسب للماضى، وذلك لأن التعبير بالمضارع دائماً فيه تصوير وإحضار للصورة الواقعة كما وقعت، ومن جهة أخرى فصيغة المضارع في هذا المقام تنبئ عما كان، وتومئ إلى ما يكون بالنسبة لخلق الله تعالى المستمر في المستقبل كما كان في الماضى وقد بين سبحانه أن هذا هو الحقّ الثابت المستمر.» (أبوزهرة، لاتا: ١٢٥١/٣) فتجلى قدرة الله بسبب الوحدانية يستمرّ في الحال والمستقبل. وفي الآية الثانية: إنّ السياق سياق الأفعال الماضية فكأنه قال: وإني أعدتها بك وذريتها، غير أنه عبّر عن الإعادة بالمضارع لإفادة الاستمرار لأنّ الشيطان لا يُوقع النَّاسَ في فخّه عند الولادة فقط بل هو مستمرّ في إغوائه الناس طيلة حياتهم. فكما أنّ الشيطان مستمرّ في إغوائه الناس، كذلك المؤمنون تستمرّ ارشادهم وتدبير شؤونهم إلى يوم القيامة.

وعبّر عن أقوال المشركين وأفعالهم بالمضارع بسبب كلية السورة لإفادة الاستمرار لأنّهم يرتكبون بالاستمرار ما يستحقّون به العقوبة. وذلك كان دأبهم وعاداتهم المعتادة. فالله بسبب وحدانيته في أمر الربوبية التي تفيد الاستمرار في تدبير شؤون العباد والإشراف عليها في كلّ الأزمنة يعلم أنّ المشركين يستمرّون ويتابعون ما كان عليه آباؤهم ويتحيتون الفرص لإلحاق الخسائر النفسية بالنبيّ والمسلمين .

فالسّياق فيما يرتبط بالمؤمنين سياق المدح وهم كانوا يؤيّدون بالقول استمرار الوحدانية في الربوبية التي هي كلية السورة كما أسلفنا عنه الذكر مراراً. وهكذا عبّر عن التوكّل على الله سبحانه وتعالى بالمضارع لإفادة استمرار إشرافه في كلّ ما يعترهم من مصائب الدنيا، وقدّم المجرور في أسلوب قرآني رفيع لإفادة الاختصاص. وذلك يتماشى مع كلية السورة إذ إنّ الاستمرار في التوكّل يتطلّب استمرار أمر الربوبية التي ينكرها المشركون بالتأكيد. ويمكن إحصاء هذا النوع من الاستبدال في كلّ السورة كما

يلى:

النسبة المتوية	عدد التواتر	
١٤/٥٢	١٨	المضارع الذى يفيد الاستمرار بالاستبدال
٨٥/٤٨	١٠٦	المضارع الذى يفيد الاستمرار دون الاستبدال
.١٠٠	١٢٤	المجموع

وأما استبدال المضارع بالماضى فيغلب التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى «إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهذدة المتوعد بها فيعدل فيه إلى لفظ الماضى تقريبا وتحقيقا لوقوعه كقوله تعالى: نفخ في الصور فصعق.» (الزركشى، ١٣٩١ش: ٣/٣٧٢) فقد تقتضى البنية، المضارع غير أن الماضى يقع مكانه لإفادة التحقق وذلك فى قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]
 ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢]
 ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:

[١٤٨

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا...﴾ [آل عمران: ١٠٦]
 ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]

فى الآية الأولى لم يقل "يهدى" بل قال "هدى"، لأن المعتصم بالله متوقع وهو المناسب للمضارع، غير أنه عبر عن المضارع بالماضى للدلالة على أن من يلتجئ إليه "تعالى" ويعتصم بجله فقد تحققت هدايته وثبتت استقامته. وفى الآية الثانية لم يقل: تخزيه، وعبر عن المضارع بلفظ الماضى تنزيلا للمتوقع منزلة ما وقع، إذ إن خزيهم أمر قطعى وحتمى. وقس عليهما "آتاهم، واسودت" فى الآية الثالثة والرابعة.

وفى الآية الخامسة لم يقل "يسلم" بل قال "أسلم" لأن السياق سياق المضارع غير أن الله تعالى عبر عن الإسلام بالماضى لإفادة التحقق والتأكيد على أمر الإسلام الذى

هو كلية السورة وتقديم الجار والمجرور يزيدان هذا التأكيد ويخصّانه بالله تعالى دون غيره. ويؤيد ما نحن فيه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسُجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]

يستدعى عمل السجود كأمر الاسلام الاستمرار. فما استبدل المضارع بالماضى إلا لتوكيد أمر الوجدانية التي هي كلية السورة. وأما إحصائه فإنه كالتالى:

النسبة المتوية	عدد التواتر	
٥٨/٣٣	٥٦	مجيء الماضى بالاستبدال للدلالة على الحتمية
٤١/٦٧	٤٠	مجيء الماضى دون الاستبدال للدلالة على الحتمية
١٠٠/.	٩٦	المجموع

استبدال الفاعل بالفاعل

قد يستبدل الفعل بالفاعل لأنّ الفاعل تتسع دائرة الزمان فيه ويدلّ على الحاضر والمستقبل كما يدلّ على الماضى. منه:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]
 ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ...﴾ [آل عمران: ٢٦]

لم يقل تجمع بل قال جامع إذ إنّ كلية السورة، أى: الوجدانية تستدعى أن يجمع الله الذين عاشوا فى الأزمنة الماضية والبعيدة والذين يعيشون فى الحاضر والذين من المقرر أن يعيشوا فى المستقبل. ولم يقل تملك بل قال مالك بسبب وحدانيته فى أمر الملكية لأنّ ملكية جميع ما فى السموات والأرض فى كلّ الأزمنة تختصّ به دون غيره وما يتصرّف فيه الناس مؤقّت ونسبى وليس قطعياً وإن تداول بينهم. ومنه:

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَاتِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:

[١٧

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي

الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]

﴿فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران:]

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]
 ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾
 [آل عمران: ١١٠]

لم يقل الذين صبروا وصدقوا وقتلوا وأنفقوا واستغفروا بل قال الصابرين و... لأن الأفعال مقيّدة بالزمن والفعل الماضي مقيّد بالزمن الماضي على الأغلب فلذا استبدل الماضي بالفاعل للدلالة على ثبات ما هم عليه بسبب أنهم أخبروا بهذه الصفات عن أنفسهم من الثبات على أمر الصبر والصدق والقنوت والإنفاق والقرار على الاعتقاد بها والابتعاد من أن ينصرفوا عنها . وذلك بسبب اعتقادهم بكية السورة.

ولم يقل الذين كذبوا وكفروا والذين فسقوا بل قال الكاذبين والكافرين والفسقين لأنهم عكس المؤمنين أخبروا بهذه الصفات عن أنفسهم من الثبات والبقاء على ما هم عليه، أى: الكذب والكفر والفسق وهى ناتجة عن عدم اتقائهم الله والاعتقاد بوحدانيته. وعندما نظر إلى السورة كنظام ننتبه أن الله كلما تحدّث عن المؤمنين والمشركين فى هذه السورة عبّر عن صفاتهم بالفاعل والمضارع لإفادة الثبوت والاستمرار فى أمر الاعتقاد بكية السورة أو رفضها؛ وإحصائه كما يلي:

-	عدد التواتر	النسبة المئوية
مجيء الفاعل بالاستبدال فيما يتعلق بالله تعالى	٢	٣/٩٢
مجيء الفاعل بالاستبدال فيما يتعلق بالمؤمنين	٣٠	٥٨/٨٢
مجيء الفاعل بالاستبدال فيما يتعلق بالكافرين	١٩	٣٧/٢٦
المجموع	٥١	١٠٠٪

استبدال الضمير بالظاهر

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤]
 ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ
 لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]

﴿...جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ
 وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]

لم يقل "وهو عزيز ذو انتقام" بل قال "والله عزيز ذو انتقام" وقس عليها بقية الآيات. ومن يستقري سورة آل عمران ينتبه أنّ مفردة "الله" التي هي رمز الوجدانية كثرت كثارة وجاءت مائة وثمانى وسبعين مرة وهو أمر يدل على أهمية التوحيد الذى هو كلية السورة. فمن منظار الكلية استبدل الضمير بالظاهر فى بعض الآيات للاعتداد بأمر مهم وهو الوجدانية.

وهاكم جدول تواتر استبدال الضمير بالله:

عدد التواتر	النسبة المئوية	
٧٧	٤٣/٢٥	"الله" بالاستبدال
١٠١	٥٦/٧٥	الله دون الاستبدال
١٧٨	١٠٠٪	المجموع

استبدال الضمير بالموصل

ينطوى مجيء المسند إليه موصولا على دلالات رائعة. ومن الجلى أن الموصول يزيد المسند إليه المعانى المنشودة، وذلك عن طريق الصلة، منه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَخَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ... وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]

استبدال الضمير بالموصل فى البداية ثم زيد ضمير الفصل للتوكيد فلم يقل "إنهم كفروا، و..." بل قال "إن الذين كفروا، و..." إذ إن الصلة تشير إلى وجه بناء الخبر، وتؤمى إلى أن ما جاء بعد الموصول وقوعه حتمى ولا شك فيه. ف"الذين كفروا" لا يغنيهم أولادهم وأموالهم شيئا من الغنى، ومجىء التنوين على "شيئا" يفيد القلة والندرة ويرفض أى غنى من جانب الأولاد والأموال للذين كفروا. واقتران الخبر فى الآية الأولى والثانية والرابعة بـ"لن والفاء" يزيد هذا التوكيد. جاء فى تفسير زهرة التفاسير: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا" وبهذا يؤكد سبحانه وقوع الكفر منهم، ويؤكد سبحانه النفي فى

قوله، "لَنْ تَعْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا" إذ نفى بـ "لن"؛ فالخبران مؤكّدان: الإثبات والنفى؛ فكفرهم وعدم نفع أعراض الدنيا مؤكّدان.» (أبو زهرة، لاتا: ١١٢٠/٢)

فبإمكاننا القول إنَّ حبَّ الكافرين للأولاد والأموال وقتلهم الأنبياء... ناتج عن إنكار الوجدانية التي هي كلية السورة ومن ينكر أمر التوحيد فعاقبته لا تعدو أن تكون العذاب كما يخبر الله عنه. وإليك تواتر هذا النوع من الاستبدال:

عدد التواتر	النسبة المئوية	
٢٤	٤٠٪	استبدال الضمير بالموصول الذي يشبه أداة الشرط فيما يتعلق بالمؤمنين والكافرين
٣٦	٦٠٪	مجيء الموصول دون الاستبدال
٦٠	١٠٠٪	المجموع

استبدال الضمير بالإشارة

«إنَّ الإشارة تميز الشيء المقصود أكمل تمييز.» (السامرائي، ٢٠٠٧: ٨٢/١) وذلك بوضعه تحت دائرة الحسّ، حتى يتجلّى في حس السامع، ويتحقق هذا حين يكون المقام مقام مدح أو مقام ذم، منه:

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ... وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤]

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]

إنَّ الأصل كان هم من الصالحين، وهم المفلحون و... ثمَّ زيد الضمير للتأكيد فلم يقل "هم من الصالحين، و..." بل أولئك من الصالحين، و...، لأنَّ المؤمنين هم الذين أثبتوا اعتقادهم بأمر التوحيد بالاستمرار في الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمشاركة في القيام بالأعمال الصالحة "الجهاد في سبيل الله، والإنفاق، و..." وتعويد أنفسهم بالصبر والتقوى فبسبب تحلّى أنفسهم بالأخلاق الحسنة هم يستحقّون أن يتصفوا بالصالحين وذلك يستفاد من الإشارة لا الضمير ولذا استبدل الضمير بالإشارة.

﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٤]
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾

[آل عمران: ٩٠]

لم يقل "هم الظالمون، و..." بل قال "أولئك الظالمون، و..." وزيد الضمير فى الجملة لأغراض ثلاثة، أى: فصل الخبر عن النعت، والقصر، والتوكيد. لأن الكافرين نهجوا عكس ما نهجه المؤمنون وهم بسبب شركهم ورفض أمر التوحيد "كليتة السورة" وهكذا الابتعاد عن الجهاد، والإنفاق، وغير ذلك زينوا أنفسهم بالأخلاق الذميمة فأولئك هم الذين يستحقون أن يوصفوا بالظالمين والفاسقين فى الدنيا والآخرة. جاء فى بحر المحيط: «أولئك إشارة إلى من تقدم موصوفاً بتلك الأوصاف الذميمة. فالإشارة هنا تفيد التنبيه على أنهم أحقاء بما سيخبر به عنهم بعد اسم الإشارة.» (الأندلسى، ١٤٢٠ق: ٧٨/٣)

عدد التواتر	النسبة المئوية
٣	٣٠/٣٤
٦	٦٦/٦٦
٩	١٠٠/.
المجموع	

استبدال جمع الكثرة بالقلّة

قد يقع جمع الكثرة موقع جمع القلّة لغرض ما وذلك نحو قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل

عمران: ٦]

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل

عمران: ٢٢]

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧]
 ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

[آل عمران: ٦٩]

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً...﴾

[آل عمران: ١٠٣]

عبر عن "الأرحام، والأعمال، والأفواه، والأنفس، والأعداء، والأنصار، و..." بجمع القلّة بدل جمع الكثرة للدلالة على أنّها وإن جاوزت الحصر فهي كالواحدة بالنسبة له ويقع جميعها تحت قدرته وسيطرته وإشرافه بسبب وحدانيته في الربوبية التي كان الكافرون ينكرونها بالتوكيد. وإليك جدول تواتره:

عدد التواتر	النسبة المئوية	
٤٦	٥٦/٠٩	جمع القلّة
٣٦	٤٣/٩١	جمع الكثرة
١٠٠	١٠٠/٠٠	المجموع

أ أو هل

هناك حرفان للاستفهام، أي: "هل، والهمزة" وتعتبران من الحروف المتقاربة في المعنى؛ بدليل صحة وقوع أحدهما بدلا من الآخر في بعض الأحيان، ولا يتم اختيار إحداهما على المحور الاستبدالي إلا بحسب ما تستدعيه البنية. وهنا تجدر الإشارة أولاً في بيان أوجه التشابه والاختلاف بين الحرفين إلى «أنّ الهمزة» أوسع استعمالاً. (السامرائي، ٢٠٠٧م: ٤/١٩٩) من "هل"؛ «لكونها أمّ الباب؛ وذاك لمجيئها في طلب التصور والتصديق، بخلاف "هل"، فإنّها لا تأتي إلا لطلب التصديق.» (الأنصاري، ٢٠٠١م: ١٣/١) وهذا يعني وجود اشتراك دلاليّ بينهما من حيث طلب التصديق، ولكن لا يعني هذا الاشتراك أنّ الحرفين سواء في هذا المعنى، بل هناك فروق تستلزم إثارة أحدهما على الآخر بحسب البنية، وإلا فمن البعد وضع حرفين بدلالة واحدة، أو عبارة أخرى، فلو كانت الدلالة نفسها بين الحرفين لاكتفى بـ"الهمزة" إيجازاً واختصاراً؛ لأنّها تؤدّي معنى التصور والتصديق. فالهمزة «هي الأصل للاستفهام و المراد به طلب الإفهام فلم تخرج عن موضوعها ولم تستعمل لنفي ولا بمعنى "قد" بخلاف "هل" ومن أجل أصالتها فيه اختصت بالحذف أي بجواز حذفها كقول الشاعر:

طَرَبْتُ وَمَا شَوْقاً إِلَى الْبَيْضِ أَطَرَبْتُ ... وَلَا لِعِبَا مَنِي وَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ

أراد أو ذو الشيب، وتدخل على النَّفى والإثبات نحو ألم يقيم زيد وهكذا على "واو العطف وفائه وثم" تنبيها على أصالتها في التصدير نحو: "أولم يسيروا في الأرض" [الرُّوم: ٩] بخلاف "هل" التي لا تتقدم على العاطف بل تتأخر عنه، نحو: "فهل أنتم مُنتهون" [المائدة: ٩١] «(السيوطي، لاتا: ٥٨٢/٢)

وما أسلفنا الذكر عنه يتعلّق بالفروق اللفظية بينهما، غير أنّ هناك فروقا معنوية أخرى بينهما بحيث لا تتضح إلا من خلال استبدال أحدهما بالآخر في البنية في الموضع الذي يشترك بينهما في التصديق، فإنّ لاستبدال أحد الحرفين مع إمكان وقوع الآخر دلالة معنوية وليس لمجرد الجواز فحسب، فكلمّا كان الموضع موضع الشدة كـ"الإنكار الإبطاليّ" والإنكار التوبيخيّ والأمر والتقرير" استدعت الجملة، الهمزة «لأن الهمزة من الأصوات المهجورة التي صوتها شديد مصمت منفتح ومستقل.» (بحري، لاتا: ٣٥) منه: ﴿أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]

﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦]

إنّ الموضع هنا موضع الشدة والتهديد إذ إنّ المسألة مسألة الوجدانية التي هي كلية السورة. وذلك تتطلّب الإسراع إليها والإعراض عن الكفر بها فلذلك استبدلت "هل" بـ"الهمزة"، وإن كان المعنى بـ"هل" صحيح غير أنّ في الهمزة معنى لا نجده في الاستفهام بـ"هل".

وهناك موضع استبدال "هل" بـ"الهمزة":

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]

هذا استفهام على سبيل الإنكار والمراد منه هنا إظهار الشفقة، أي: أنّه متى يكون الفرج والنصرة؟ أو هل لنا من أمر الله نصيب. فالسياق سياق الرخوة دون الشدة. إذ إنّ "الهاء" «صوت مهموس رخو منفتح ومستقل و"اللام" مجهور منحرف منفتح بين الشدة والرخاوة.» (بحري، لاتا: ٣٥-٣٦) وإليك جدول تواتر هذا النوع من الاستبدال:

عدد التواتر	النسبة المتوية	
٨	٨٨/٨٨	أ
١	١١/١٢	هل
٩	١٠٠/١٠٠	المجموع

إن أو إذا

هناك تشابه بين "إذا وإن" في دلالتيهما على الشرط في الاستقبال إذ إننا لا نجد فرقا بينهما غير بعض الفروق المعنوية الخفيفة التي لا تتضح إلا من خلال استعمالهما في البنية فلا يمكن استبدال أحدهما بالآخر أو إثارة إحداهما على الآخر إلا بناءً على تلك الفروق والبنية التي تردان فيها، ف"إن و إذا" للشرط في الاستقبال لكن «أصل "إن" عدم الجزم بوقوع الشرط، وأصل "إذا" الجزم بوقوعه». (تفتنازاني، ١٣٧٨: ١٣٩/١) وبناءً على ذلك تستعمل "إن" في المعاني المحتملة الوقوع والمشكوك في حصولها، وتأتى "إذا" للمقطوع بحصوله ولهذا ترى كلما خاطب الله المؤمنين والمشركين استبدلت "إذا" بـ"إن" بسبب كلية السورة، نحو قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

[آل عمران: ٣١]

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:

١٢٠]

دخلت "إن" في هذه الآيات على المحور الاستبدالي بدل "إذا" للإفادة بأن حب الله، والصبر، والتقوى، والإيمان بالله، وعدم إطاعة المؤمنين للمشركين أمر متوقع بسبب اعتقادهم بكلية السورة، أى: الوجدانية.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]

والعكس صحيح فيما يرتبط بالكافرين لأن الإعراض والتولى وعدم الصدق فيما يقولون أمر ينتظر منهم بسبب رفض كلية السورة من جانبهم. وإليك الآن جدول تواتر

هذا النوع من الاستبدال:

النسبة المئوية	عدد التواتر	
٨٤/٢١	١٦	"إن" فيما يتعلق بالمؤمنين والكافرين
١٥/٧٩	٣	"إذا" فيما يتعلق بالمؤمنين والكافرين
./١٠٠	١٩	المجموع

استبدال "سوف" بـ"السين"

تدخل "سوف والسين" لإفادة الاستقبال على المضارع، غير أن هناك أقوالاً في دلالة السين وسوف اللتان تدخلان على أول المضارع للاستقبال كما ذكرنا: الأول: «إن السين وسوف تدلان على الزمن غير أن "سوف" أكثر معنى من "السين" ويقصدون بالمعنى ههنا: الدلالة الزمنية. فسوف كالسين غير أنها أوسع زماناً منها وذلك عند البصريين لما فيها من ارادة التسوييف، ومنه قيل فلان يسوف فلانا، لأن كثرة الحروف تدل على كثرة المعنى، ومرادفة لها عند غيرهم.» (يونس، لاتا: ٥) والقول الثاني: «إنهما حرفا استقبال، وتأتیان للدلالة على الاستمرار.» (يونس، لاتا: ٨) يرفض ابن هشام الأنصارى هذا القول: «إن الاستمرار يستفاد من المضارع، والسين أو سوف مفيدتان للاستقبال.» (الأنصارى، ٢٠٠١: ١/١٢١) والقول الثالث: إن "السين" تأتي: «في بداية الخطاب لإرادة التعبير، ولا يؤتى في هذا الموقف إلا بالسين، وذلك أنها لما دلت على الزمن القريب، وكان المتكلم يحرص على إثبات فعله اللغوي وأن حصوله قوى إلى درجة أنه قريب الوقوع، فلا يعبر بسوف الدالة على تراخي الحدث في آتات الزمن البعيد، فالعربي الناطق لا يبدأ جملة بفعل مستقبل بعيد، لأنه يدرك أن هذا الابتداء مخالف لغرضه الدلالي، ومُستدعٍ لضعف حدثه اللغوي الذي يريد تقويته في ذهن السامع.» (يونس، لاتا: ١٦) منه:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ...﴾ [آل عمران: ١٥١]

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ...﴾ [آل عمران: ١٨]

بعد التصفح في سورة آل عمران نجد أن "سوف" استبدلت بـ"السين" في كل الآيات

وذلك ناتج عن رفض كليّة السورة، أو قبولها. فإجابة من يرفض أمر التوحيد تتطلّب التهديد والتخويف ويتمّ ذلك بمعونة "السين" لا "سوف" لأنّ أمر التهديد لا يؤجّل. فيقذف الله في قلوبهم عن قريب الخوف والفرع بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم معه آلهة أخرى من غير حجة وبرهان. ويأمر الحفظة بكتابة ما قالوه في صحائف أعمالهم وجريمتهم الشنيعة الناشئة عن قتل الأنبياء بغير حق وبخبرهم عن هزيمتهم دون المهلة والتراخي. فيقتضى رفض كلية السورة التهديد والوعيد وذلك لا يناسب التسوية والتأخير. والعكس صحيح فيما يتعلق بالمؤمنين والشاكرين فهم بسبب اعتقادهم بأمر التوحيد يُبشرون بالثواب الجزيل عن قريب. وإحصائها يكون كما يلي:

جدول تواتر استبدال "سوف" بالسين

النسبة المئوية	عدد تواتر	
-	-	سوف
١٠٠٪	٥	السين
١٠٠٪	٥	المجموع

النتائج

بما أنّ البنيويّة تهتمّ باللغة وتجعلها تحت دائرة حسّها تمكن دراستها في أيّ نصّ من النصوص، دينيا كان أم غير دينيّ فلا تقلّل من اعتبار النصّ كما رأينا في التطبيق بل تزيد النصّ اعتبارا وأهمية.

صحيح أنّ الانتباه إلى جميع وجوه المعنى في هذه السورة بسبب عدم اعتداد البنيوية بخارج النصّ والاكتفاء بما يقع داخل النصّ أمر مستحيل غير أنّها بسبب إلقاء الضوء على ما يكون داخل النصّ والنظرة إليه كنظام تكشف عن الكثير من الإبهامات داخله كما رأينا في دراستنا. فهي أفضل طريق لغويّ لإمطة اللثام عن معالم الإعجاز في هذه السورة، إذ إنّ الكثير من الأسئلة فيما يتعلّق بها ليست بإمكاننا الإجابة عنها إلا من خلال التدبّر في النصّ وفي إطار الكلية.

إنّ إحصاء الكلمات الصرفية في هذه السورة تشير إلى أنّ هناك الكثير من

المفردات استبدلت بالكلمات الأخرى في إطار النظام للدلالة على الوحدانية، ومن أهمها كما أسلفنا الذكر عنها في التطبيق تجدر الإشارة إلى استبدال "سوف" بالسین والماضي بالمضارع وعكسه.

من خلال مرورنا بتطبيق المحور الاستبدالي في سورة آل عمران رأينا أن الانتباه إلى معنى بعض المفردات أمر مستحيل ولا يتم إلا بمعونة هذا المحور وذلك في إطار النظام لا غيره. فكما علينا أن نهتم بما يقع خارج النص للحصول على المعنى الذي تتطلبه السورة، علينا إلقاء الضوء على ما يقع داخل النص خاصة محور الاختيار وفق رؤية سوسور لا المنهج النقدي القديم الذي يغفل الكلية، وتنحصر دراسته داخل النص في الجملة ولا تتجاوزها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي. ١٩٨٤م. التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر.

أبو زهرة، محمد بن أحمد. (لاتا). زهرة التفاسير. بيروت: دار الفكر العربي.

الأندلسي، أبوحيان. (١٤٢٠ق). البحر المحيط في التفسير. تح: صدقي محمد جميل. بيروت: دار الفكر. الأنصاري، ابن هشام. (٢٠٠١م). مغنى اللبيب عن كتب الأعراب. ط ١. تحقيق: أبو عبدالله على عاشور الجنوبي. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

بازرگان، عبدالعلي. (١٣٧٥ش). نظم قرآن. تهران: انتشارات قلم. پای، ماريو. (١٩٩٨م). أسس علم اللغة. ط ٢. ترجمة وتعليق: الدكتور أحمد مختار عمر. القاهرة: عالم الكتب.

التفتازاني، سعدالدين. (١٣٧٨ش). شرح المختصر على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني (المعاني والبيان والبدیع). قم: منشورات دار الحكمة.

التونسي، ابن عاشور. (١٩٨٤م). التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر. جاكسون، ليونارد. (٢٠٠٨م). بوس البنيوية الأدب والنظرية البنيوية. ط ٢. تح: تائر ديب. دمشق: دار الفرقد.

الجرجاني، عبدالقاهر. (١٩٩٥م). دلائل الإعجاز. تح: محمد التنجي. بيروت: دارالكتاب العربي.

حسان، تمام. (١٩٩٤م). اللغة العربية معناها ومبناها. مصر: دار الثقافة.

- حمود، عبدالعزيز. (١٩٩٨م). المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك. الكويت: عالم الكتب.
- الداية، فايز. (١٩٩٦م). علم الدلالة العربي. ط ٢. النظرية والتطبيق: دراسة تاريخية - تأصيلية - نقدية. دمشق: دارالفكر.
- الزركشى، أبو عبدالله. (١٣٩١ش). البرهان فى علوم القرآن. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دارالمعرفة.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. (١٩٩٣م). المفصل فى صنعة الإعراب. تحقيق على بو ملحم. بيروت: مكتبة الهلال.
- السامرائى، فاضل صالح. (٢٠٠٧م). معانى النحو. بيروت: دار إحياء التراث العربى.
- السيوطى، جلال الدين. (لاتا). همع الهوامع فى شرح جمع الجوامع. تح: عبد الحميد هنداوى. مصر: المكتبة التوفيقية.
- عبدالعزيز، محمد حسن. (١٩٩٠م). سوسير رائد علم اللغة الحديث. القاهرة: دار الفكر العربى.
- دى سوسور، فرديناند. (١٩٨٥م). دروس فى الألسنية العامة. ترجمه: صالح القرمادى، محمد الشاوش، محمد عجينه. طرابلس: الدار العربية للكتب.
- المجلات الجامعية
- الصويان، سعد العبد الله. (٢٠٠١م). «النظرية اللغوية عند فرديناند دى سوسور». مجلة الدراسات اللغوية. مجلد ٣. العدد ٢ (ربيع الآخر - جمادى الآخر ١٤٢٢ق/ يوايو - سبتمبر).
- الرسائل الجامعية
- بحرى، نورة. «نظرية الإنسجام الصوتى وأثرها فى بناء الشعر». (دراسة وظيفية تطبيقية فى قصيدة "الموت والاضطرار" للمتنبى). رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه فى اللغة العربية.
- توامه، عبد الجبار. (١٩٩٤م). القرائن المعنوية. رسالة دكتوراه فى النحو العربى: جامعة الجزائر.
- ناى، نسيم. (٢٠١٠-٢٠١١م). مناهج البحث اللغوى عند العرب فى ضوء النظريات اللسانية (مذكرة لنيل درجة ماجيستر). الجزائر: جامعة مولود معمري (تيزى وزو).
- يونس، محمد ذنون. (لاتا). مشكلة زيادة المبنى ودلالاتها على زيادة المعنى دراسة تطبيقية على السين وسوف فى القرآن الكريم. جامعة الموصل: كلية الآداب.